الأدب بين الواقع والوجدان

بقلم يوسف حوراني

اذا صح لنا ان نطلق على العصر الحاضر صفة تشمل نواحي نشاطه وتعبر عن الاتجاه العقلاني فيه فتلك الصفة هي «عصر القياس» ، فنحن في كل حقول نشاطنا نستخدم القياس والحدود . وهذه الصفة المغرقة في واقعيتها ، تكاد تطغي على وجدان الانسان التواق للتحرر ، فتخنق فيه صفات كثيرة هامة لاينطبق عليها القياس ، مثل الشفقة والحنين والحب وحس الجمال ..

ومما يندر ان نسمع انسان المدينة الحاضر يقول : هذا جميل ، رائع ، او يوحي الشفقة ، بل هو يقول في حكمه على ماحوله : هذا مفيد ، او عديم الفائدة ، صالح للاستعمال او فيه عطل ما . واذا اعتدل فهو يقول : هذا مثير ، فهو مادي بتحسسه لما حوله ، وقل ان يهتز وجدانه لما يقرأ ويرى او يسمع . وما نحتاج اليه الان لتعود الى الانسان ثقته ببعض المثل هو مهندسيون نفسيون يتحسون بدقة متطلبات الوجدان ويكيفون تلك المثل لتصبح اكثر اثارة وجاذبية له .

وقد كاد الفن ، وهو ابن الوجدان البار ، كاد يمشي مع المؤامرة في كل مظاهره ، من ادب وشعر وتصوير ونحت وموسيقى . فهو بواقعيته الحديثة ، اخذ يضع الاقيسة ويقيم الحدود ، وهكذا تنتهي ميتافيزيقيته ، وتحدد قضية الانطلاق الكامل فيه ، فيصبح الانسان كما هو بشوهاته وعجزه محصورا ضمن مثلثات ومكعبات هندسية ، يحمل في يده اليمنى فرجارا للمسافات ، وفي الاخرى جهازا الكترونيا لقياس ذبذبات الصوت ، بينما عيناه تنظران حينا لاناس محنيي الظهور يرزحون تحت ثقل كتب عليه وزنه ، وحينا اخر الى اناس غيرهم يعلو الرضى وجوههم ، وهم يتحلقون حول مائدة صفت فوقها زجاجات من الخمر كتب على كل زجاجة منها نوعها ونسبة الكحول فيها .

هكذا ينكمش الوجدان الانساني على ذاته في ظلمة من الواقعية الصامدة الصلدة . والادب كان منذ وجوده وسيلة التعبير المثلى عن اختلاجات الوجدان . وحركات العواطف الانسانية . ولكنه كفن يخضع لمفاهيم المجتمع ، يعاني كثيرا من فرضيات الواقع الجافة . وهو الان يجتاز تجربة خطيرة قاسية فاما ان يخرج منها فنا صالحا للتعبير الوجداني ، صالحا لالتقاء العواطف الانسانية ، او ان يبتعد عن رسالته ، ويصبح اداة جامدة شبه آلية ، تنقل الاخبار المجردة وصور الحوادث المحدودة بالزمان والمكان .

ان اقسى صدمة تعرض لها الادب منذ وجوده هي صدمة الواقعية الحديثة ، فهي تهدده بكينونته كفن ، تهدده بوجوده مستقلا عن عالم الارقام ، ومرتبطا بالوجدان اللا محدود . هي تفرض وجودها فيه ، ولا مناص له من قبولها والرضوخ لها ، كما رضخت مقومات الحياة الاخرى . انها تطلب من الفنان ان يصبح انسانا عاديا بنظرته للاشياء والاحداث . وهو ان فعل هذا يتخلى تلقائيا عن رسالته الفنية ، وبذلك يبتعد عن قيادته للوجدان في المجتمع ، ويصبح كالمصور الفوتوغرافي للاشياء لايتدخل في عرضها ولا يعي تأثيرها .

ولم يشذ ادباؤنا وفنانونا عن التأثر بعامل الواقعية الحديثة التي نبتت جذورها في الغرب ، فنظرة قصيرة الى ماتقذفه للسوق دواليب المطابع عندنا تؤكد لنا الانفعال الشديد بهذا العامل على مابه من ابتعاد عن الفن وضعف لنصيب الخلود فيه . ولعل الميزة الهامة التي جعلت الواقعية تعم في مثل هذه السرعة ، هي انها لا تتطلب مجهودا فنيا كبيرا لكسب الاتباع ،بل يكفي الكاتب احيانا ان يكون ذا تجارب شاذة ، او مثيرة حتى يلاقي اقبال القارىء وتأييده حتى ولو كان هو ضعيف التذوق الفني وضعيف الحس الانساني .

الفن بطبيعته هو هروب من الواقع ، هو ابتعاد عن الواقع المشوه او الناقص بتأثيره صوب المثال الكامل ، الغامض بشوهاته .

ان الادباء الاول ، ناسجي الاساطير كانوا اول الفنانين في التاريخ. وهم اول من اوجد تعبيرا أدبيا عن احاسيسهم، رضيت عنه نفوس معاصريهم واوجدوا فيه هم مثلهم في الكمال والقوة ، بعد ان ابوا الاعتراف بفرضية الواقع الناقص الضعيف .

وقد قبل الانسان فيما بعد ذلك التعبير كآثار ادبية فرضية. وهذا مما يثبت لنا بان الادب هو انطلاق لاحاسيس الفنان ، هو تجررمن واقعية الحوادث وتعليق لتأثيرها بالملا نهاية .

ان حوادث الحروب القديمة بأكملها ، رغم كل المآسي التي كانت تتأتى عنها ، لاتعادل في قيمتها الادبية او تأثيرها على الفكر البشري قصة يوم واحد من ايام حصار طروادة، كما وصفها هوميروس . وهي بوقائعها المجردة لاتهز

الوجدان كاهتزازه عندما يهبط احد الالهة لنصرة بطل من ابطال تلك المحلمة الخالدة ، وذلك عندما تضيق بالبطل سبل النجاة . فقد اضفى الشاعر على الموقف من خياله مؤثرات فنية جمة دخل بها الى الوجدان ، وتدخل الالهة ووقوف بعضهم ضد بعض لمساندة الابطال اعطى الحوادث صفة الخلود كخلود الالهة انفسهم ، او كخلود القدر الذي ينتظر كل انسان لان يكون عن طريقه خلاصه .

ولم يكن عنصر الالهة الذي استخدمه الادباء قديما بعيدا عن عنصر الناس ، فهم لهم نفس النزعات النفسية :يحبون ويكرهون ويحقدون ويثأرون ؟ ولكن ميزتهم هي انهم خالدون . وبذلك يكونون مثلا صالحة لقيها الفنانون في خيالهم ، فاستعاضوا بها عن الناس العاجزين الذين يعوقهم المرض ويحد حياتهم الموت .

ان الحوادث الواقعية لايمكنها ان تخلد ، فهي دائما في تغير وتطور ، كما ان تغير مفاهيم المجتمع وتطورها يفقدانها قيمتها كمواضيع تثير ، ولكن مايخلد هو الرابطة الفنية التي تجمعها وتؤالف بينها وبين الوجدان الانساني العام الخالد بحسه وغير المرتبط بالزمان والمكان . وكلما كانت تلك الرابطة متملكة محكمة يكون نصير الخلود فيها اقوى واشد صلابة وثباتا على الزمن والتغير .

ان الفنان مدعو لتخليد ابطال الواقعية الحاضرة ، هو مدعو لربط وقائع اعمالهم بوجدان الانسان ، وبذلك ينقذ الفن وينقذ حس الانسان الوجداني له . هو ليس بامكانه ان يكون واقعيا مجردا . ومن المرجح انه سيفقد فعاليته وتأثيره في المجتمع ان دام وجدانيا هائما . اننا ندعوه لان يؤالف بين الواقع والوجدان وبذلك يبدع « واقعية وجدانية » يرضى عنها هو ويرضى بها الاخرين ، ويعيد للفن هيبته وحرمته .

تمثل الادب الواقعي اليوم الصحافة بسردها الاخباري ، وكتب الاسرار بما فيها من اثارة وكتب الجنس التي تحاكي الغرائز البهيمية ، او الكتب العقائدية التي تلزم ابطالها الانفعال من ناحية واحدة فقط ، وفي الشعر قصائد الغزل الحسي الذي يرسم الموضوع بوصفه ويعبر عن الرغبات الغريزية نحوه . وهذه الاتجاهات الادبية تلاقي رضى عنها في اوساط القراء وهي لاشك مؤقتة محدودة التأثير ، لان مايوجهها هو الكبت والحرمان والحقد ومركبات النقص في الجماهير . ومثل هذه الصفات ليست انسانية عامة . اما الادب الانساني الذي يثير الوجدان بما فيه من فن وتعبير عن المثل فيكاد يكون لاوجود له كأعمال متكاملة ذات اثر .

ان الادب الحالي يقف امام الانسان بمواضيع واقعية ، يومية الحدوث ، وهو هكذا يجابهه بما يهرب منه ويعجز بها عن مخاطبة وجدانه . فالواقعية المجردة تعيد الانسان الى البدائية ، وليس التعبير عنها من الفن في شيء ، بل قد ينكرها ويهرب منها وذلك لمحدودية غاياتها كمحدودية الاشكال الهندسية ، كما انها تقتصر على الفرد وتقيدها له التربية وتفعل فيها الظروف المجتمعية . هذا بينما نرى نزعات الوجدان المطلقة مشتركة بين الجميع ، لايحدها زمان او مكان ، ولا تختلف بين الفرد والاخر الا بدرجة الكثافة التي تفرضها الظروف الفردية .

سئل احد الادباء الاميركيين الناجحين عن سر نجاحه فأجاب بان ادبه القصصي يرتكز على دعائم ثلاث هي : الواقعية والعنف والجنس . ولكننا في اثار ذلك الاديب نرى نجاحه في غير ماذكر ، فهو يستخدم الواقعية الحادة ، العنيفة وبذلك يحول ابطاله الى مثل اجتماعية يهتم بها وجدان القارىء لغرابتها عن الواقع الذي يألفه . ومن ثم لانجد نجاحه الا بأسلوبه الفني الذي يجعل القارىء يثور على العنف وينقم على دعاته ، اما الجنس فهو في مواقف كثيرة نجده يصطنع ذكره اصطناعا ويتخذه كرابطة فنية يربط بها بين تصرفات البطل المثالي وبين وجدان القارىء الانساني الذي يرضيه بان يكون البطل انسانا ذا صفات مثل صفات الناس .

ـ ان الواقعية لايمكنها ان تهزم ، كما ان الزمن لايمكن ان يعود الى الخلق ، وواجب الفنان هو ان يعيش بالوقائع ويراقبها ، وحتى لو اخفى الحقائق خلف ستار من الرموز والايماء ، فهو لايكون مخادعا عندئذ ، بل يكون عاملا مخلصا لرسالته الفنية التي من خلالها يوجد اثارة واهتماما للواقع .

ان السبيل لخلق واقعية ادبية بناءة تصلح للخلود هو الفن في التعبير ، فهو وحدة قادر على ربط الواقع بالوجدان . ولعله ليس لاول مرة يتدخل في هذا الشأن ، فالمدنية اليونانية القديمة كانت بعقلانيتها قريبة من المدنية المادية الحاضرة ، ولكن الفن كان ذا وجود فعال فيها ، حتى ان بعض الاثار الادبية التي وصلت الينا لم تكن لتصل لولا فنها التعبيري الخالد ، ومن هذه الاثار كتاب عظيم لم يزل في قمة المؤلفات الناجحة وهو جمهورية افلاطون . فخلوده لم يحصل لاجل مابه من افكار قيمة ،فهناك افكار كثيرة لفلاسفة سابقين اكثر عمقا واصدق حدسا ، لكن ماخلده هو اسلوبه الفني الرائع الذي قاوم الضياع .

ولعل العصر الحاضر هو اخصب العصور في اعطاء مواد فنية للاديب ، فهو يضع في متناوله معارف كثيرة لم تكن وافرة في العصور الماضية ، فهو بمنطقه حرمه من عناصر الخيال البعيد كالالهة والارواح ،لكنه بسط له بعض غموض تصرفات النفس الانسانية وفك بعض طلاسم علم الحياة والوراثة وقرب له المسافات وجهزه بامكانيات كثيرة لصنع ماعجز عنه انسان الماضي ، حتى انه اصبح باستطاعته الان ان يوجد اشياء جميلة رائعة ومفيدة معا .

يوسف حوراني